ذِكْرُ أولاد المعظم:

[كان له ثلاثة أولاد من الذكور][1] النَّاصر داود، والمغيث عبد العزيز، والقاهر عبد الملك، ومن البنات تسع، وقيل: إحدى عشرة.

السنة الخامسة والعشرون وست مئة

فيها نزل جلال الدين الخوارزمي على خِلاط مرَّةً ثانية، وهَجَمَ عليه الشِّتاء، فرحل عنها إلى أذربيجان، وخرج الحاجب علي من خلاط بالعسكر، فاستولى على خُوَي وسَلَمَاس ونَقْجوان، وتلك النَّواحي، وأخذ خزائن الخوارزمي وعائلته، وعاد إلى خلاط، فقيل له: بئس ما فعلتَ، وهذا يكون سبباً لهلاك العباد والبلاد. فلم يلتفت.

وفيها نجزت مدرسة الركن الفلكي بقاسيون، وذكر فيها ملك شاه الدرس.

ووصل عماد الدين بن الشيخ من مِصْر، ومعه ابن جلدك بالخِلَع والتقليد إلى الملك الناصر داود، وأقام ابن الشيخ بدمشق.

وفي ربيع الأول كانت الوقعة على باب صور بين العزيز عثمان وصارم الدين التِّبْنيني والفرنج، كمنوا لهم قريباً من صور، فلما تعالى النهار خرج الفارس والرَّاجل بأغنامهم ومواشيهم، وخرج عليهم المسلمون، فقتلوا وأسروا منهم سبعين فارساً، وساقوا الجميع، ولم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس، [وكانت وقعة عظيمة][1].

وحجَّ بالنَّاس من الشَّام علي بن السَّلاَّر.

وفيها توفي

عبد الرحيم بن علي[2]

ابن إسحاق بن شِيْث القاضي، جمال الدين، القُرشي، العالم الفاضل.

كأنَّ الله تعالى قد جَمَعَ له بين الفَضْلِ والمروءة، والكرم [والفتوة][1]، والإحسان إلى الخَلْق، ما قصده أحدٌ في شفاعةٍ فردَّه خائباً، وكان يمشي بنفسه مع النَّاس في قضاء

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٢١٧، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

حوائجهم، وكان كثيرَ الصَّدقات، واسعَ المعروف، غزير الإحسان، وكان القاضي الفاضل يحتاج إليه في عِلْم الرَّسائل، وكان إماماً في فنون العلوم [من المنظوم والمنثور][1]، مات له ولدٌ صغير، فخرج في جنازته يبكي ويقول: [من مجزوء الرمل]

ما الذي أطمعُ في الدُّنـ ... ـيا وقد فارقتُ بعضي
هكذا تنفلتُ الدُّنـ ... ـيا من الأيدي وتمضي

قال المصنف رحمه الله: كتبتُ إليه كتاباً أتشوَّق إليه فيه، فكتب جواباً بخطِّه: [من البسيط]

وافى كتابُك وَهْوَ الرَّوْضُ مُبْتسماً ... عن ثَغْرِ دُرٍّ طفا مِنْ بحرك الطَّامي
وكان عنديَ كالماءِ الزُّلال وقد ... تناولَتْهُ يمينُ الحائمِ الظَّامي
لله نفحةُ فَضْلٍ منه رحتُ بها ... نشوانَ أسحبُ أذيالي وأكمامي
يا يوسفَ الفَضْلِ إني بعد فُرْقتنا ... يعقوبُ أرجو بشيراً لي بإلهامي
وما كتابُكَ لي إلا القميصُ إذا ... وافى نفى عن جفوني دَمْعَها الهامي

ورد الكتاب الفلاني لازال سحائب بركاته يحيي النفوس بعد موتها، وهِمَّته العالية تنيل بالهمم شوارد المطالب بعد فوتها، وأياديه تجيب الآمال قبل رفع صوتها، فتلقاه قائماً، وقام بحقِّه وكان عاجزاً لنفسه لائماً، وأكبَّ على عنوانه مقبِّلاً، وأطلق به خاطره الذي كان الوجد له مقيداً ومكبلاً، وافتتحه كما يفتتح عن الأزهار أكمامها، وشاهد منه الجواهر التي رقَّ نثارها وراق نظامها، وتمثل منه جنة على الله تحيتها وسلامها، فشكر الله لتلك الأنامل التي هي بحار الفَضْل، هذه الجواهر الشَّفَّافة الجامعة بين الجزالة واللَّطافة، وابتهج بما دَلَّ عليه من سلامة سيدنا أدامها الله وأكملها، واستأنف الأدعية التي ما أَخَّر وظائفها قَطُّ ولا أهملها. وذكر كلاماً آخر.

وله تصانيفُ كثيرة، ورسائل وأشعار [لطيفة][1]، وكانت وفاته بدمشق سابع المحرَّم، ودفن بقاسيون، وكان [سبب وفاته أنه كان][1] محترماً عند المعظم مُكَرَّماً، وقد جعل له راتباً يقوم بأَوَده، فلما مات المعظم قطع [ذلك][1] الرَّاتب، [الذي كان بصدده][1] ووقع التقصير في حَقِّه، وكانت له نفس شريفة، وهِمَّة عالية [منيفة][1]،

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

فمرض أياماً، ثم أسكت، [فبلغني أنه][1]، سأل الله أن يريحه من الدنيا، فاستجاب دعاءه، [وسمع نداءه][1] رحمه الله.

وفيها توفي الشَّريف البهاء الكاتب، وشمس الدين القواس.

السنة السادسة والعشرون وست مئة

في صفر ولَّى الملكُ النَّاصر محيي الدِّين يحيى بن الزكي قضاء القضاة بدمشق، وقرأ عهده بهاء الدين بن أبي اليُسْر [بالكلاسة][1].

وفيها أعطى الكامل بيت القدس للإنبرور، ووصل [الإنبرور][1] إلى يافا، وخرج الكامل من مِصْر، فنزل تل العجول، وكان النَّاصر داود قد بعث الفخر بن بصاقة إلى الأشرف يستدعيه إلى دمشق، فوصل إلى النَّيْرب، ونزل ببُسْتانه، وكان عز الدين أيبك قد أشار على النَّاصر بمداراة الكامل، وقال [له: لا][1] تبعثْ إلى الأشرف وداوِ الأخطر. فخالفه، وقال الأشرف للنَّاصر: أنا أمضي إلى الكامل، وأصلح حالك معه. ومضى إليه، فوجده قد دفع القدس إلى الإنبرور، فشقَّ عليه، ولام الكامل، فقال: ما أحوجني إلى هذا إلا المعظم. أشار إلى أَنَّ المعظم أعطى الإنبرور من الأردن إلى البحر، وأعطاه الكامل الضِّياع التي من باب القُدْس إلى يافا وغيرها، ولما اجتمع الأشرف والكامل اتَّفقا على حصار دمشق، ووصلت الأخبار بتسليم القُدْس إلى الفرنج، فقامت القيامة في بلاد [الإسلام، واشتدت العظائم بحيث إنه][1] أقيمت المآتم.

قال المصنف: وأشار الملك النَّاصر داود بأن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى [على البيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة والحمية للإسلام موافقته][1]، فجلستُ [بجامع دمشق][1] وحضر النَّاصر داود على باب مشهد عليٍّ، وكان يوماً مشهوداً، [لم يتخلف من أهل دمشق أحد][1] ومن جُمْلة الكلام: انقطعتْ عن بيت المقدس وفود الزَّائرين، يا وَحْشَة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن

(١) ما بين حاصرتين من (ش).